الصحابة و الاستجابة

بقلم

إبراهيم بن صالح الدحيم

مصدر هذه المادة :



الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com

دار الوطن للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، وفق من شاء لطاعته فاستجابوا لأمره وانقادوا لشرعه وسلموا تسليمًا، وأضل من شاء فحرم مجاورته وعذب بالبعد عنه، وما الله يريد ظلمًا للعباد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخليله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا وبعد:

فحين تكون حقيقة الحياة أكلاً وشربًا ونومًا وتردد أنفاس فقط. فإن ذلك يعني عدم الفارق بين الدواب والهوام وبين ذلك الإنسان الذي كرمه ربه فقال: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: 70].

بل حين يضل الإنسان ويفهم الحياة على إنها شهوة بطن وفرج.. فإنه يضرب في البهيمية بأكبر سهم ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ**﴾ [الأنفال: 22] بل ربما صار شرًا منها

وأســـوأ حـــالاً كما قـــال تعـــالى: ﴿أُولَئِكَ كَالأَنْعَـــامِ بَـــلْ هُمْ أَضَـــلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

إن الحيـــــــاة الحقيقية لا تكـــــــون إلا بالاســـــــتجابة لأمر الله عز وجل وطاعته والسـير على منهجه وشـريعته دون تلكؤ أو تبـاطؤ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24] إنها دعوة للاسـتجابة لتعـاليم الإسلام وشريعته وهدايته (إنها دعوة للحياة بكل صور الحيـاة وبكل معـاني الحيـاة.. إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهـام الجهل والخرافـة، ومن ضـغط الـوهم والأسـطورة، ومن الخضـوع المـــذل للأســـباب الظـــاهرة والحتميـــات القـــاهرة، ومن العبودية لغـــير الله والمذلة للعبد أو للشـهوات سـواء...)[1]. إنها دعـوة لحياة القوة والعـزة والاسـتعلاء، إنها دعـوة لحيـاة الأدب الـراقي والخلق الرفيع في جو لا ينبت فيه غـــــــير الكلمة الطيبة واللفظة الحانية والقلب الـــرحيم إنها دعـــوة لحيـــاة

1 (?) ظلال القرآن 3/1494.

المنهج في وهج الحيـــــاة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا للـهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

* **قـــال ابن القيم رحمه الله**: (إن الحيــاة النافعة إنما تحصل بالاســتجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت حياة بهيمة، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغـيرهم أمـوات وإن كـانوا أحيـاء الأبـدان. ولهـــذا كـــان أكمل النـــاس حيـــاة أكملهم استجابة لـدعوة الرسـول ﷺ فـإن كل ما دعا إليه ففيه الحيــاة، فمن فاته جــزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحيـاة بحسب ما اســـــــــــــــــــــتجاب للرسول ﷺ)[1].

* ولا يستجيب لهذه النـداءات العُلوية إلا من ارتقت نفوســهم وصــفت مشــاعرهم وأصاخت أسماعهم ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ

---

1 (?) بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم، جمع يسري السيد 2/331.

يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] أما الـذين هم في سـكرتهم يعمهـون، وفيما اشـتهت أنفسـهم غـارقون، فـإنهم لا يفيقـون حـتى تـأتيهم السـاعة بغتة وهم عنها معرضـون ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام: 36].

* لقـد تحـددت معـاني الحيـاة الطيبـة النافعة عند الرعيل الأول فطلبوها واجتهدوا فيهـا، وخلصـوها من الرغبـات الذاتيـة والشهوات الدونية، لم تكن الاستجابة لأمـر اللـه عنـدهم تخضـع لفرصـة التفكـير، أو لوطأة التأجيل، ولا حتى التدقيق أو التحقيق لمحاولة صرف الأمـر إلى الآخـرين دون أن يكون له فيه نصيب، بل كان الأمر يـأتي فيظن كـل واحـد من الصـحابة أنـه المعني به أولاً قبل غيره.

صافحوا النجم واستطابوا القيظ
واستذلوا الوعر إنما الأخطار أثمان

إن السر الوحيد الـذي قلب وجه الأرض، وحوّله من سـواد مظلم إلى نـور مشـرق أشد من ضـوء الضـحى وضـوحًا، هو هـذه الاستجابة الصادقة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

ونشـــرع الآن بـــذكر نمـــاذج عالية من استجابات الصـحابة لأمر الله وأمر رسـوله ﷺ، أعرضـها غـير مرتبة ولا معنونة اسـتثارة للنفس ودفعًا للســـــآمة والملل مع تعليق مختصر يناسب المقام.

صورة منيرة لاستجابة الصحابة

* تجارة أبي الدحداح: عن ابن مسعود قال: لما نزلت ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [البقرة: 245] قال أبو الدحداح : يا رسول الله! أو إن الله يريد منا القرض؟! قال: «**نعم يا أبا الدحداح**»! قال: يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، حائطًا فيه ستمائة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه في عياله فناداها: يا أم الدحداح! قالت لبيك: قال: اخرجي فقد أقرضت ربي حائطًا فيه ستمائة نخلة»[1] وحين يتمالكك العجب من فعل أبي الدحداح! فاعجب أكثر من مطاوعة زوجته له!!. كم هي الخطب الرنانة التي تلهب العواطف؟! وكم الآيات التي تتلى في الترغيب بالصدقة، والأحاديث التي تتردد على الأسماع في ذلك، ثم انظر حصيلة هذا الضخ العاطفي الضخم! بينما يسمع الصحابي آية واحدة تحرك مشاعره

---

1 (?) تفسير ابن جرير لآية (245) من سورة البقرة.

وتزهده في الدنيا!!

أيها الشح جافني فلقد زدت في

* **غسلته الملائكة**: وهـذا حنظلـة بن أبي عامر يدخل على زوجته في ليلة عرسه فينادي منادي الجهاد: يـا خيـل اللـه اركـبي! فيفزع من فراشه إلى فرسه ويأخذ سـيفه، ويــــدخل الجيش، ويلتقي الفريقــــان في مواجهة سريعة حاسمة، فيقتل فيهـا الـزوج العــروس لتتم لــه الســعادة في الشــهادة، ويرفــع النــبي ﷺ بصــره وهــو يقــول: «**إن صــاحبكم تغســله الملائكــة فســلوا صاحبته عنه**» فقالت: إنه خرج لما سـمع الهائعــة وهــو جنب... فقــال ﷺ: «**لــذلك غسـلته الملائكة**»[1]. اللـه أكـبر.. نـاداه منادي الجهاد وهو في ليلة عرسـه فأجـاب، دعـاه الشـوق إلى الجنـة وإلى لقـاء اللـه فلبى، ولم يجد فرصة لأن يغتسل خوفًـا أن يتأخر!!

جاء بها قالصة ... تحن والحنة

1 (?) صلاح الأمة في علو الهمة. للعفاني وحسنه (3/369) وعـزاه للحـاكم، وقـال الحـاكم: صـحيح على شــرط مســلم ولم يخرجــاه وســكت عنه الذهبي. وله شواهد يتقوى بها.

ما أولع الحنين   تذكري رمل النقى

فبالله حدثني عن رجل ينام ملء عينيه: آمنًا في سربه معافىً في جسده، يسمع داعي الله ينادي كل يوم (الصلاة خير من النوم) ولا يحرك ساكنًا، بل لسان حاله يردد (النوم خير من الصلاة!!).

من قال حي على   يقول حي على

* **اللهم ارحم بني سلمة**: يعود رسول الله ﷺ وأصحابه من أحد، تلك الغزوة التي اشتد فيها القرح وعظم فيها الجرح، قتل فيها من خيار الصحابة من قتل، وجرح فيها من جرح، حتى إذا صلى صلاة الصبح من اليوم الثاني أمر بلالاً فنادى: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال أمس، فخرج سعد بن معاذ إلى داره يأمر قومه بالمسير وكلهم جريح فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تطلبوا عدوكم فقال: أسيد بن حضير ﵁ وبه سبع جراحات يريد أن يداويها!! (سمعًا وطاعة لله ورسوله) وأخذ سلاحه ولم يعرِّج على دواء، ولحق برسول الله ﷺ وخرج من بني سلمة

أربعون جريحًا: بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا، وبالحارث بن الصمة عشر جراحات، حتى وافوا رسول الله ﷺ على جراحهم فقال لما رآهم «**اللهم ارحم بني سلمة**».

تأن بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء

* **الجريحان**: وعن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان، أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل، كان شهد أحدًا. قال: شهدت أحدًا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله؟! والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ - وكنت أيسر جرحًا من أخي – فكنت إذا غلب حملته عقبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد...[1] فأنزل الله تعالى قوله ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا**

---

1 (?) تاريخ الطبري 2/75، البداية والنهاية 4/56.

أَصَـابَهُمُ الْقَـرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ [آل عمران: 172].

لقـد مزجـوا حـرارة الألم بلـذة الطاعـة، فـانقلب الأنين حنينًـا، والمشـقة شـوقًا!! ونحن: أقعدنا ألم الضرس، ووجع الـرأس – ليس عن سـاح الكفـاح – بـل عن إجابـة داعي الفلاح؟! ثم نطلب بعد ذلك عزًا، ونأمل نصرًا، حالنا كما قال الأول:

يحاول نيل المجد ويأمل إدراك

* **لا تهـزمهم الإبل**: وفي حـنين لما انكشف النبي ﷺ وأصحابه ولم يبق مع النـبي ﷺ إلا عدد قليل جـدًا، أمر العبـاس أن ينـادي بالنـاس: أين أصـحاب الشـجرة؟! وكـان العباس صيتًا، قال: فنـاديت بـأعلى صـوتي، أين أصحاب الشجرة!! قـال: فوالله لكـأن عطفتهم حين سـمعوا صـوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك. قال: فـاقتتلوا والكفار.. ولابن إسـحاق نحـوه وزاد «فجعل الرجل يعطف بعيره فلا يقدر، فيقذف درعه ثم يأخذ بسـيفه ودرقته ثم يؤم الصـوت»[1].

إنها التربية النبوية على بـــذل النفـــوس

---

1 (?) فتح الباري 8/40.

والأمــوال رخيص في ســبيل اللــه، وإجابة داعي الله لا يحجز عنه خوف أو طمع. فهل تملك لغة تعلق بها على هذه المواقف؟!

* **انتهينا انتهينا**: وحين هاجر الصحابة إلى المدينة لم تكن الخمر قد حـرمت بعـد، فكـــــان منهم من يتعاطاها كما يتعـــــاطى الحلال من الطعام والشراب، يشربونها في نواديهم ومجالسهم فلما نزل قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾ [المائدة: 91]. قالوا: انتهينا انتهينـــا. يقـــول أنس: كنت ســـاقي القـــــوم يومئذ في بيت أبي طلحـــــة، وإذ بمنـادي رسـول الله ﷺ ينـادي فقـال: اخـرج فـانظر، فخـرجت فـإذا منـادٍ ينـادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قـال: فجـرت في سـكك المدينة فقال لي أبو طلحة: اخرج فاهرقها، فهرقتهـا..»[1]. لقد كـان يكفي الصـحابة أن يسمعوا كلمة واحدة في تحريم شيء حــتى يجتنبوه في امتثـال تـام واسـتجابة عامة لم يشهد التاريخ لها مثيلاً!! لم يكن يمنعهم من تركها جريــان العــادة عليهــا، ولم يكونــوا

---

1 (?) البخـاري (2464) ومسـلم (1980) واللفظ لمسلم.

بحاجة إلى أيــام ليتــدرجوا في تركهــا، لقد تركوها مباشــرة. وهــذه هي حــال أصــحاب الإرادة القويـــة، تلك الإرادة الـــتي ينشـــئها الإيمـــان، فتباشر آيـــات القـــرآن بـــالقبول والإذعــــــان، إنها صــــــورة عظيمة لمجتمع الصحابة!! فهل نجد في حاضر الأمة أفــرادًا حين يقال لهم: إن الغنــاء محــرم، والــدخان محــرم، والربا محــرم... يكــون رجع صــدى أحـــدهم «ســـمعنا وأطعنا»؟!. إنه الإيمـــان الــذي باشر القلــوب فجعلها تــذعن راضــية مختارة! قارن هــذا مع ما جــرى في القــرن العشــرين (حيث أرادت الولايــات المتحــدة الأمريكية أن تخلص شعبها من مضار الخمر وتجـــرب ما جـــاء به القـــانون الإســـلامي فشــرعت في ســنة 1930 قــانون تحــريم الخمر، والذي حرم على الناس بيع الخمــور أو شـــــراءها أو صــــنعها أو تصـــــديرها أو استيرادها وقد مهدت الحكومة لهذا القانون بدعاية واسعة عن طريق الســينما والتمثيل والإذاعة ونشر الكتب والرسائل، وكلها تبين مضار الخمر مدعومة بالإحصــائيات الدقيقة والبحوث العلمية والطبية، وقد قدر ما أنفق

بـ 65 مليونًا من الدولارات، وسودت تسـعة آلاف مليون صـفحة في بيـان مضـار الخمر والزجر عنها، وأنفق ما قدر مجموعة بأربعة ملايين ونصف من الجنيهات لأجل تنفيذ هذا القانون، ودلت الإحصـائيات للفـترة الواقعة بين تـاريخ تشـريعه وبين تشـرين الأول 1933 أنه قتل في سبيل تنفيذ هذا القانون مائتا نسـمة، وحبس نصف مليـون، وغـرم المخـالفون له غرامـات تبلغ مليـون ونصف المليـون من الجنيهـات، وصـودرت أمـوال تقـدر بأربعمائة مليـون جنيـه. وكـان آخر المطـاف أن اضـطرت الحكومة الأمريكية إلى إلغـاء قـانون التحـريم في أواخر سـنة 1933، ولم تنفعها تلك الأمـوال الطائلة والتضـحيات الجسـيمة لحمل النـاس على ترك الخمر الثابت ضـررها، لأن القـانون لم يكن له سـلطان على النفـوس يحملها احترامه وطاعتـه. ولكن كلمة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائـدة: 90] الـتي جـاءت بها الشـريعة الإسـلامية في جزيـرة العـرب وبين أنـاس اعتـادوا شـربها دون أن يسـبق ذلك دعاية واسـعة أو نشر كتب ورسـائل – ألجمت

الأفــــواه عن تــــذوق الخمر ودفعت أولئك النــاس إلى إراقة خمــورهم بأيــديهم لا بيد شرطي أو رقيب [1].

* **نفوس روضت شهواتها**: وصــورة أخـرى في هـذا المعـنى من الاسـتجابة للـه ولرســــوله ﷺ، والتخلص من الحضـــــوض النفســية والانتصــار على دافــع الشــهوة، نعــرض لــذلك في وقت نــرى كثــيرًا من الشباب قد باع دينه من أجـل شـهوة زائلـة ونزوة عارمة، ففي البخاري في خبر قــدوم وفد هوازن مسلمين فسـألوه أن يـرد إليهم أموالهم وسـبيهم وأنـه خـيرهم بين الأمـوال والسبي فاختاروا السبي فقام رسـول اللـه ﷺ في المسـلمين فـأثنى على اللـه بمـا هـو أهله ثم قـال: «أمـا بعـد فـإن إخـوانكم قـد جاءونـا تـائبين وإني قــد رأيت أن أرد إليهم ســــبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلـــك فليفعل». فقال النـاس: قـد طيبنـا ذلـك يـا رسـول اللـه، فقـال رسـول اللـه ﷺ: «إنـا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن،

---

1 (?) المــدخل لدراسة الشــريعة الإســلامية عبد الكريم زيدان ص37.

فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمـرکم». فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعـوا إلى رسول الله فـأخبروه أنهم قـد طيبـوا وأذنوا)[1] تصور هـذا الموقـف وانظـر مـدى الاستجابة، السـبي وزع والجـواري قسـمت ثم يأتي الطلب بعد أن تعلقت النفـوس بـل ربما بعد أن هـيئت الجاريـة لسـيدها!! نقـل ابن حجر عن ابن إسحاق في مغازيه» قال: حدثني أبو وجزة يزيد بن عبيـد السـعدي أن رسول الله أعطى من سبي هـوازن علي بن أبي طـالب جاريـة يقـال لهـا ريطـة بنت حبان بن عمير، وأعطى عثمان جارية يقـال لهـا زينب بنت خنـاس، وأعطى عمـر قلابـة فوهبها لابنه، قال ابن إسحاق: فحدثني نافع عن ابن عمـر قـال: بعثت جـاريتي إلى أخـوالي في بـني جمح ليصـلحوا لي منهـا، حتى أطوف بالبيت ثم أتيتهم، فخـرجت من المسـجد فـإذا النـاس يشـتدون، قلت: مـا شـأنكم؟ قـالوا: رد علينـا رسـول اللـه نساءنا وأبناءنا فقلت دونكم صـاحبتكم فهي

---

1 (?) البخاري (4318).

في بني جمح، فانطلقوا فأخذوها [1] إنها الاستجابة في الوقت الذي تعلق فيه القلب، واشتاقت فيه النفس، إننا لا نستطيع أن نجرد ابن عمر من معاني الرغبة فيه، ولا من إنسانيته، لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب وكفى!

وليس بالبطل في الحرب تخمد
لكنه من لوى قلبًا فيه العيون فذاك

* **بعد ما غلت القدور**: وصورة أخرى في هذا المعنى من الاستجابة الجماعية، ففي صحيح البخاري عن ابن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: أصابتنا مجاعة ليالي خيبر فوقعنا بالحمر الأهلية فانتحرناها، فلما غلت القدور نادى منادي رسول الله: **أكفئوا القدور، فلا تطعموا من لحوم الحمر شيئا**» [2] وفي لفظ لمسلم «فأكفئت القدور بما فيها وإنها لتفور بما فيها» [3]... (مجاعة) و (القدور تغلي) أي استشراف سيكون عند الصحابة، وأي تعلق

---

1 (?) فتح الباري 8/46 ط دار السلام.
2 (?) البخاري (3155).
3 (?) مسلم (1940).

ستبلغه نفوسهم!! ثم في هذه الحالة تأتيهم الأوامر النبوية أن الحمر الأهلية قد حرمت.. فما العمل؟! اكفئـوا القـدور.. هل أحالوها مظاهرات واحتجاجات يملأ ضجيجها الأسـواق والسـاحات العامـة؟! لا (فـأكفئت القدور بما فيها وإنها تفور بما فيهـا) وانتهت القضية.. ودون أي مراجعة!!

* **التنظيم العجيب**: وفي حديث كعب بن مالــك الطويل[1] في خــبر تخلفــه عن غزوة تبوك يقول – واقرأ العجب في حديثه – وفيه: (فنهى رسول الله عن كلامنا أيها الثلاثــة من بين من تخلــف عنــه، فاجتنبنــا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكـرت في نفسـي الأرض فمــا هي الــتي أعــرف. فلبثنــا على ذلك خمسين ليلة، فأمـا صـاحباي فاسـتكانا وقعـدا في بيوتهمـا يبكيـان، وأمـا أنـا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخـرج فأشـهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد... حتى إذا طـال علي ذلـك من جفـوة النـاس، مشـيت حـتى تسـورت جــدار حائــط أبي قتــادة – وهــو ابن عمي

1 (?) البخاري (4418).

وأحب الناس إليَّ – فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت عليه فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار... قال كعب: حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر...)
إن الكلمات تعجز عن التعليق على هذا الموقف، عن ماذا نتحدث؟! هل نتحدث عن الانضباط العام من الصحابة في عدم الحديث مع كعب وصاحبيه حتى استوحشت عليهم الديار؟! أم نتحدث عن الحميم والقريب لكعب – أبو قتادة – وكيف أنه استجاب للأمر مع شدته، أجزم أن هذا الأمر لو طلب من أبي قتادة أيام الجاهلية

فستكون الثريا أقرب إلى الطالب منها، فالعصبية قد ضربت فيهم أطنابها، وشدت عليهم حبالها، قد صوت شاعرهم فقال:

وهل أنا إلا من غويت وإن ترشد

لكنه الإيمان!! وسنكررها: إنه الإيمان حين يستقر في القلوب..

ثم لا ننسى هذه الاستجابة الفذة من كعب - صاحب القصة – فقد تتابعت عليه المحنة، ولا يزال على استعداد تام لقبول أوامر النبي ، حتى ولو كان ذلك في فراق زوجته؟!

* **عند تحويل القبلة**: عن البراء أن رسول الله صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وإنه صلى، أو صلاها - صلاة العصر - وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت...»[1].

* معاملة النساء: في الجاهلية كان

1 (?) البخاري (4486).

الرجـل يسـتنكف على المـرأة، ويـرى أنهـا مسخرة لخدمته، مخلوقة لحاجتـه، حـتى إذا أشـرقت أنـوار الرسـالة تحـولت الصـخور الجلمـد – الـتي كـانت قبـل في الجاهليـة – إلى قلوب لينـة تلين إلى ذكـر اللـه وأمـره، تبتغي الأجـــر مظانــه، فعن العربــاض بن سـارية قـال: قـال رسـول اللـه : «**إذا سقى الرجل امرأته الماء أجر**». قـال: فقمت إليهــا فســقيتها وأخبرتهــا بمــا سمعت[1].

يا سائق الظعن أمانة رعيها

* **الحلف بالله**: وفي الجاهلية أيضا اعتــاد النــاس تعظيم الآبــاء حــتى كــانوا يحلفون بهم، فلما نهاهم النـبي عن ذلـك، هل اعتـذروا بجريـان العـادة؟! عن عمر بن الخطـاب قـال: قـال رسـول الله : «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبــائكم**» وفي روايـــة: «**فمن كـــان حالفًا فليحلف باللـه، أو ليصـمت**» وفي روايـة: قـال عمـــر: فوالله ما حلفت بها منذ سـمعت

[1] (?) السلسلة الصحيحة رقم (2736).

رسـول الله ﷺ ينهى عنهـا، ذاكـرًا ولا آثـرًا»[1][2]. كم هي الكلمـات الـتي تخـرج على ألسـنة النـاس وفيها محـاذير شـرعية – اللعـان، التنـابز بالألقـاب ونحوها – ثم إذا نهيتهم عنها وجدت أن تغيير ذلك يحتاج إلى زمن!!

* بـاب النسـاء: وعن نـافع عن ابن عمر قـال: قـال رسـول الله ﷺ «**لو تركنا هـذا الباب للنساء**. قـال نـافع: فلم يـدخل منه ابن عمر حتى مات»[3] وكان عمر «نهى أن يدخل من باب النساء»[4]. لقد عرف البـاب عند عموم الصحابة بعد ذلك بباب النسـاء!! إنه تمـام الانقيـاد ومنتهى الاسـتجابة والطاعـة، يكفي أن يقـترح النـبي ﷺ فتنقـاد النفـوس لـذلك، كأنما تـؤمر به أمـرًا، وفي الحـديث عنه ﷺ «**لا يـؤمن أحـدكم حـتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[5].

---

1 (?) آثرًا: أي: حاكيًا عن غيري أنه حلف بها.

2 (?) البخاري (3424) ومسلم (01654).

3 (?) أبو داود (462-571) وصححه الألباني.

4 (?) أبو داود (464) وضعفه الألباني.

5 (?) رواه النووي في الأربعين وقال حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

* **عند تأبير النخل:** وإذا كان الاقـتراح منه يقع موقع الأمـــر، فـــإن الظن وتوقع الأصلح يكفي للتسليم والانقياد، عن موسى بن طلحة عن أبيه قـال: مـررت مع رسـول الله يقوم على رءوس النخل، فقـال: «**ما يصنع هؤلاء؟**» فقـالوا يلقحونـه، يجعلـون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله : «**ما أظن يغـــني ذلك شـــيئًا**»، قـــال: فـأخبروا بـذلك فـتركوه، فـأخبره النـبي فقـــــال: «**إن كـــــان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًا، فلا تؤاخذوني بـالظن، ولكن إذا حـدثتكم عن الله شـيئًا، فخـذوا بـه، فـإني لن أكـــذب على الله عز وجل**»[6] آه.. لقد سـار القــوم ووقفنــا، وتقــدموا ورجعنــا، فوصلوا وانقطعنا، وإن لم نلحق بهم شقينا، لقد أقعدنا العجز وأخرنا التسويف!

إن قلت قم قــال: رجلي ما تطــاوعني..
أو قلت خذ قال: كفي ما تواتيني!!

* **هزمـوا ثــورة نفوســهم**: صــورة

---

6 (?) رواه مسلم (2361).

أخرى من الاستجابة تجسْد لك معنى آخر جميلاً، هو التنازل عن الحقوق، والعفو عن الزلات طاعة الله واستجابة لأمره. أخرج الترمذي وأصل الحديث في البخاري أن معقل بن يسار : زوج أخته رجلاً من الصحابة وأعانه على تكاليف الزواج ويسر له الأمر، حتى إذا مر به زمن طلقها طلاقًا رجعيًا، فلما خرجت من عدتها أراد أن يرجع إليها فخطبها مع الخطاب فقال معقل: وقد غضب من فعله – كيف يزوجه ويعينه ثم يطلق، وضع نفسك مكانه..؟! – زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدًا، - وكان رجلاً لا بأس به، والمرأة تريد أن ترجع إليه – وأنزل الله هذه الآية ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 232] «فلما سمعها معقل قال: الآن أفعل يا رسول الله، فزوجها إياه»[1]. عجبًا والله: ما الذي حل

1 (?) البخاري (5130) والترمذي (2981).

غضب معقـل، وما الـذي أزال حنقـه؟! إنه تعظيم أمر الله تعالى.

* **هزموا أطماعهم**: وقـريب من هـذا الموقف ما روي في سـنن أبي داود عن أم سـلمة قـالت: أتى رسـول الله ﷺ رجلان يختصمان في مواريث لهـام لم تكن بينة إلا دعواهمـا، فقـال النـبي ﷺ: «**إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصـمون إلي، ولعل بعضـكم أن يكـون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضـيت له من حق أخيه بشـيء فلا يأخذ منه شـيئا فإنما أقطع له قطعة من النـار. فبكى الـرجلان وقـال كل واحد منهما حقي لك**»[1].

قـارن ذلك مع واقعنا الـذي اشـتعلت فيه الخصومات، وازدادت فيه العـداوات، وبحت فيه أصوات الدعاة تنادي ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] ولا مجيب؟!

* **في التـذلل للإخـوان**: عن علي بن زيد، قال: بلغ مصعب بن الزبـير عن عريف الأنصار شيء، فهم به، فدخل عليه أنس بن

---

1 (?) رواه أبو داود (3584).

مالك فقال له: إني سمعت رسـول الله يقـول «**اسـتوصـوا بالأنصـار خـيرًا** – أو قـال: معروفًا – **اقبلـوا من محسـنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**» فألقى مصـعب نفسه على سريره، وألـزق خـده بالبسـاط، وقـــــال: أمر رســــــول الله على العين والرأس، فتركه)[1] لقد انطفأت نار العـداوة إكرامًا لقـول رسـول الله . فلله ما أكـرم الجيل وما أعظم الأمة الـــــتي ينتسب إليها هؤلاء!.

* **معاملة الأسرى**: وعن أبي عزيز بن عمـير أخي مصـعب ابن عمـير رضـي اللـه عنهمـا قـال: كنت في الأسـرى يـوم بـدر، فقـــال رســـول اللـــه : «**استوصـــوا بالأســـارى خـــيرًا**» وكنت في نفـــر من الأنصـــار، فكـــانوا إذا قـــدموا غـــداءهم وعشـاءهم أكلـوا التمـر وأطعمـوني الـبر لوصية رسول الله [2].

يا ربع إن وصلوا فهم الأولى ملكوا

---

1 (?) السلسلة الصحيحة رقم (3509).

2 (?) الطبراني في الكبير 22/977، وقال الهيثمي إسناده حسن 6/86.

شغلوا بحسنهم وعلى القلوب

* الوصية: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله قال: «**ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي به يبيت ليلتين، إلا ووصيته عنده**»[1] زاد مسلم[2]: قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله يقول ذلك إلا وعندي وصيتي.

* **تنفيذ الأمر العام**: وأخرج البيهقي بسند صحيح من طريق ثابت عن ابن أبي ليلى: كان النبي يخطب فدخل عبد الله بن رواحة فسمعه يقول: «**اجلسوا**» فجلس مكانه خارجًا من المسجد، فلما فرغ قال له: «**زادك الله حرصًا على طواعية الله وطواعية رسوله**»[3].

ومثله روي عن ابن مسعود أن النبي كان يخطب فقال للناس: «**اجلسوا**» فسمعه ابن مسعود وهو على الباب فجلس؛ فقال

---

1 (?) البخاري (4409).
2 (?) مسلم (1628).
3 (?) الإصابة رقم الترجمة (5282). ط. بيت الأفكار الدولية.

: «**يا عبد الله ادخل**»[1]. أي حالة من حالات الانضباط والاستجابة هذه الحالة، إنه الصدق الذي لا يحتاج معه إلى متابعة أو مراقبة، قارن ذلك بحال المنافقين الذين يستخفون من الناس، ويفرحون أن تغيب عنهم الأعين ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: 63] حتى لا يقعوا في طائل التكليف.

* **الاستجابة في اللباس**: وعن سهل بن الحنظلية أنه كان بدمشق فقال له: أبو الدرداء : كلمة تنفعنا ولا تضرك قال: سمعت رسول الله يقول «**نعم الرجل خريم الأسدي لو قص من شعره وقصر إزاره**، فبلغ ذلك خريمًا، فعجل فأخذ السفرة فقصر من جمته ورفع إزاره إلى أنصاف ساقيه»[2].. يا ترى كم تحتاج من وقت لتقنع شابًا على رفع ثوبه أو ترك القزع والتشبه بالكفار والفساق في قصات شعورهم أو ألبستهم المتميعة؟!

---

1 (?) حياة الصحابة ص (471) ط بيت الأفكار، وعزاه لابن أبي شيبة وهو في كنز العمال (7/56).

2 (?) أحمد 4/180.

* **الريطة:** وعن عمـرو بن شـعيب عن أبيه عن جده قال: (هبطنا مع رسـول الله ﷺ من ثنية فـالتفت إلي وعلي ريطة مضـرجة بالعصـــــفر فقـــــال: «**ما هـــــذه الريطة عليك**؟! فعرفت ما كـره فـأتيت أهلي وهم يسـجرون تنـورًا لهم فقـذفتها قيه ثم أتيته من الغد فقـــــــال: **يا عبد الله ما فعلت الريطة**؟ فأخبرته فقـــال: **ألا كســـوتها أهلك فإنه لا بأس به للنساء**)[1].

والنساء شقائق الرجـال، لم يكن حـالهم بأقل من الرجال لقد استجبن وما اسـتلبثن، ســـجل لهن التـــاريخ مواقف يشـــتد منها العجب مقارنة بالواقع المعاصر؟!

* **النساء والحجـاب:** أخـرج ابن حـاتم عن أم ســـلمة رضي الله عنها قـــالت: لما نـــزلت قوله تعـــالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُـلْ لأَزْوَاجِـكَ وَبَنَاتِـكَ وَنِسَـاءِ الْمُـؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحـزاب: 59] خـــرجت نســـاء الأنصـــار كـــأن على رءوســـهن الغربـــان من الســـكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها»[2].

1 (?) أبو داود (4066) وحسنه الألباني.

2 (?) ابن كثير في تفسير الآية 6/482 ط دار طيبة

* **الاحتشـــــام من الإيمـــان**: وعن عائشة قـالت يـرحم الله نسـاء المهـاجرات الأول لما أنزل الله ﴿**وَلْيَضْـرِبْنَ بِخُمُـرِهِنَّ عَلَى جُيُـــوبِهِنَّ**﴾ [النـــور: 31] شـــقّقن مـــروطهن فـــاختمرن بها»[3] الله أكـــبر.. شققن مروطهن مباشرة فاختمرن بهـا! لم تنتظر حـتى تـذهب إلى السـوق فتشـتري خمـارًا!! لقد كـانت المـرأة من الصـحابة لا تعــرف الحجــاب قبل الإســلام، فلما نــزل الأمر به، سارعت في الاستجابة حتى لكأنها متحجبة منذ زمن!! فهل تعي ذلك نســـــاء المؤمنين اللاتي ولـدن في الإسـلام فتحفظ حجابها، وتستجيب لنصح الناصح حين تــؤمر بتغطية ما ظهر من بـــدنها – وهي المـــرأة الـتي اعتـادت الحجـاب من نعومة أظفارها وعلمت أنه أمر ربها -؟!

* **عـــدم الاختلاط**: عن أبي أســـيد الأنصـــــــــاري أنه ســـــــــمع

وروى ابن أبي حاتم بمعنـاه عن عائشة في نسـاء الأنصار عند نزول قوله تعالى (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) ابن كثير 6/46. وهو في سـنن أبي داود (4102) وصححه الألباني.

[3] (?) البخاري (4758).

النبي ﷺ وهو خارج من المسجد فاختلط رجال مع نساء في الطريق فقال ﷺ: «**يا معشر النساء استأخرن فإن ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق**، قال أبو أسيد فقد رأيت المرأة تلتصق بالجدار حتى أن ثوبها يعلق بالجدار من شدة لصوقها به»[1]. واليوم تجد الرجل أحيانًا هو الذي يلتصق بالجدار بسبب صفاقة المرأة وقلة حيائها، وذهاب الأدب عنها!!.

* * *

هذا شيء من خبر الصحابة الذين كانت حياتهن كلها استجابة لأمر الله ورسوله عرضناها من أجل بعث النفوس على التأسي: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [الممتحنة: 6].

فتشبهوا إن لم إن التشبه بالكرام

وحين نبتغي للأمة عزًا ونطلب لها نصرًا، فلابد أن نحتذي حذو السلف الصالحين من

---

1 (?) أبو داود (5272) وحسنه الألباني.

الصحابة والتابعين، كما قال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

فها هي أخبار القوم قد نشرت لك، وأعلامهم قد رفعت إليك، قد صوت الداعي بك فعليك بالحق وهلم فالحق، فالصبح قد بان ضيائه، واستبان نهاره، وأشرقت أنواره.

تالله قد لاح عنينان نحة الفجر
وأخو العماية في الليل بعد...
تالله قد رفعت لك كنت المشمر نلت
وإذا جبنت وكنت حرم الوصول إليه

الختام

* وختامًا لابد أن نقول: إن الاستجابة لله ليست خيارًا من خيـارين مطـورحين... كلا، بل هي أمر ربـــاني لا محيد عنه ولا محيص، فـــــــأنت عبد والله ربك وما على العبد إلا الطاعة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24] فإن دعاك الداعي فلم تجب، وناداك فلم تسـتجب، فـأتم الآية علَّ شـدة الوعيد فيها يحـــيي قلبك ويحـــرك كيانك ﴿وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللـهَ يَحُـولُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِـــهِ﴾ [الأنفـــال: 24] (إنها صـــــورة تستوجب اليقظة الدائمـة، والحـذار الـدائم، والاحتيـاط الـدائم. اليقظة لخلجـات القلب وخفقاته ولفتاتــه، والحــذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكـون انزلاقًـا...)[1] الحـذر من أن يحـول الله بينك وبين قلبـك، عندها لا ينفع فيك وعظ ولا يرث فيك نصح، فيمرض القلب ويزداد حـتى يصـاب بـالرآن ويقع في الهلاط. إنها حالة شــديد وصـــوءة مفزعة مرعبة يخلفها الإعـــــراض عن الله

---

[1] (?) الظلال 3/1495.

وعن رسـوله وعن أمـره وهـداه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

* قال ابن القيم رحمه الله: «والخبر أن من ترك الاستجابة له ولرسوله، حال بينه وبين قلبه عقوبة له على ترك الاستجابة، فإنه سبحانه يعاقب القلوب بإزاغتها عن هداها ثانيًا كما زاغت هي عنه أولاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]..»[1] فاستجب لداعي الله واحذر التسويف فقد يقطع الأجل باب العمل، واستح أن يكون جواب نداء الله منك الإعراض، فإنه ليس لعذاب الله من دافع، وما لك من الله من ناصر: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ [الشورى: 47] ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: 18]. اللهم

---

1 (?) بدائع التفسير 2/334.

اجعلنا ممن دعوته فأجاب، وناديته فلبَّى، ووعدتهم منك الحسنى.

هـــذا وبالله التوفيق والله أعلم وصـــلى الله وســـلم على نبينا محمد وآله وصـــحبه وسلم تسليمًا كثيرا..

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	5
صورة منيرة لاستجابة الصحابة	8
تجارة أبي الدحداح	8
غسلته الملائكة	8
اللهم ارحم بني سلمة	9
الجريحان	10
لا تهزمهم الإبل	11
انتهينا انتهينا	11
نفوس روضت شهواتها	13
بعد ما غلت القدور	15
التنظيم العجيب	15
عند تحويل القبلة	17
معاملة النساء	17
الحلف بالله	17
باب النساء	18
عند تأبير النخل	18
هزموا ثورة نفوسهم	19
هزموا أطماعهم	20
في التذلل للإخوان	20

معاملة الأسرى 21
تنفيذ الأمر العام 21
الاستجابة في اللباس 22
النساء والحجاب 23
الاحتشام من الإيمان 23
عدم الاختلاط 24
الختام 26